

جذور إرهاصات الطب النفسي الإيقاعية التطوري (من الإبداع الخاص) الفصل الخامس "خالجي جوهر" رواية "مدرسة العراة"



نشرة "الإنسان" 2018/07/01

العدد: 3956 - العدد: 3956

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

yehiatrakhawy@hotmail.com

مقدمة

نواصل اليوم نشر فصول رواية "مدرسة العراة" (1) تباعا في هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهي الجزء الثاني: من ثلاثية "المشى على الصراط" هيا.

وهذا هو الفصل الخامس صورة غريب جوهر

"غالي جوهر"

المصيبة أنى لا أصدق ما أحاول أن أقنعها به، النقاش يزداد يوما بعد يوم وهي تدفعني لأن أقول حجبا وبراهين تكاد تقوض حياتي قبل حياتها، كأنى أنساق بهذا العناد إلى التشكيك في كل ما كان، لا أستطيع أن أتخلص من ألفاظي التي لا تقنعها مع أنها تناسب إلى حتى تكاد تقنعني أنا، يبدو أنى أحاول أن أقنع نفسي بالتمادى في إقناعها، هي التي لا تكف عن النقاش، صحيح أنا الذى صنعتها على مفاى فكرى حينذاك، ولكن ماذا لو تغير المفاى بعوامل التعرية والزمن؟

الأفكار التي لا تندمج في عواطفنا وتحدد سلوكنا في صحونا ونومنا ألفاظ داعرة، هذا ما تعلمته غصبا عنى مؤخرا، هي أجسام غريبة تدخل إلى عقولنا تطمسها ونبيع أنفسنا لها ونحن نتصور أننا نتخلص بها من الخوف ونتجنب المواجهة، أحاول أن أراجع نفسي فى حذر، أنا لا أحاول، أنا مضطر، لكننى اخترت بمجيبى واستمرارى أن أضطر، ملكة تتمسك بما كان كما لو كان مثبتا فى اللوح المحفوظ، صحيح أن الأفكار التي اعتنقناها قد رحمتنا من شعور الأقلية بالاضطهاد كما أدرجتنا فى طبقة الثوار التقدميين، وجدنا أنفسنا مع أغلبية صنعناها بأنفسنا، مع العمال الكادحين، كنا أقلية بالولادة فأصبحنا حماة حمى عمال العالم، هذا الموقف الجديد يكاد يحرمانا من تبريرات الشعور بالاضطهاد والاعتذار به، صدقت ملكة أننا الأغلبية الجديدة، ونسيت وحدثنا القاسية الحقيقية.

شتان بين حياة داخل أسوار من الألفاظ الصلبة، هربا من الخوف إلى الحلم بالمجهول، وبين الحياة فى غابة مكشوفة، صدرك عار وقرار المستقبل بين يديك، تحمل هموم العالم ليل نهار، لا تتجح فى أن تخبئها حتى تحت الوسادة، تنام مفتوح العينين وإلا اغتالك داخلك والتهمتك الوحوش المتحفة فى أعماقك، أى مصيبة جلبتها على نفسي، كنت مع الأقلية - بالولادة - وكان لى رب يحمينى، وأب يسمع أترف له، وملكوت ينتظرنى، كنت أوقد نارا مضطهدة لكل من يضطهدنى أو يهيمش عقيدتى، الآن، أعيش أملا مستحيلا أن يتساوى كل الناس بكل الناس ولو فى

صحيح أنا الذى صنعتها على مفاى فكرى حينذاك، ولكن ماذا لو تغير المفاى بعوامل التعرية والزمن؟

الفرص والأحلام، ليس أملا بل هو واجب يومي، عرفت الفرق ووجه الشبه بين ما هو واجب يومي وواجب قومي.

كيف؟ من معي؟ "من" فعلا معي حقيقة لا شعرا؟ حين وجدت نفسي متورطا بهذا الالتزام الجديد وجدتي وحيدا تماما، حتى ملكة: ليست هنا رغم تشابه أفكارنا حتى التماثل. بدأت مخاوفي وهواجسي إثر ما رأيت ذلك اليوم، اضطرت أن أراجعنا دون قصد، زميل عمل، وزميل كفاح، وزميل سجن، وزعيم رأي، وموسوعي، إجاباته جاهزة، وصوته مرتفع، كان مرجعي المذهبي دون منصب رسمي، تأخرت في مكتبي لعمل إضافي وكان هو أيضا ينهي بعض مهامه بعد مواعيد العمل دون علمه بوجودي، سمعت صوت شجار عنده ثم ارتطام كراسي بالحائط ثم استغاثة، دخلت مسرعا فوجدته قابعا في ركن الحجرة يرتعش مثل فأر فقد الطريق إلى جحره، رأيت "ذلك الغريب" ممسكا بالكرسي من أرجله وقد رفعه فوق رأسه في الهواء وهو لا يضره ولا يتركه، تسمرت في مكاني أشارك الفأر رعبه المعدى، سمعت الغريب يواصل هجومه بعد أن ألقى إلى نظرات غضب واحتقار معا وكأني شريك في جريمة ما، قال له كلاما كثيرا ما بين السباب والمعايرة: "نذل، جبان، تغرر بالبنات وتفسد عقولهن لصالح شهواتك" زاد وجومي وتسمرت خوفا وحيرة ورغبة في معرفة المزيد، الغريب ضعيف البنية وصاحبنا فحل جسيم، فيل ملقى على ظهره وقد رفع سيقانه أمام ابن آوى، بلغت المأساة أوجها حين صاح صديقي بي لما رآني "إلحقتي ياغالي"، لم ألحقه، كيف ألحقه؟ قفزت من داخلي رغبة خبيثة - رغم علاقتنا الرائعة الممتدة - أن يستمر المنظر أكثر لشعوري الداخلي فجأة أنه يستأهل ما يجري فعلا، وأكثر.

أحسست بانهييار العالم حين تبينت جلية الأمر لما تهادى الغريب في ثورته: "سرقتها وخذعتها مثل أى جبان، انتهزت فرصة غيابي وهي أمانة في عنقي، أحضرتها من بلدنا كإبنة من بناتي، سوف تدفع الثمن يا وغد، لا أعرف كيف أكمل الغريب"، لو كنت تستأهلها لأرغمك على الزواج منها يا جبان - طفلة ذات خمسة عشر عاما يا وغد !! - ولكن ظفر المكوجي الذي خطبها رغم علمه بكل شئ برقبتيك، أما أنت فلا تستأهل غير هذه".

بصق في وجهه وانصرف وهو ينظر إلى باحتقار حتى تصورت أنه سوف يبصق على أنا أيضا، أخذت أهرز رأسي يمينا وشمالا حتى أفيق من صدمتي وأستعيد الموقف، ظل هو قابعا في ركن الحجرة كالمغمى عليه، لونه في لون الموتى والعرق يعلن استمرار نوع ما من الحياة، لم لا يقوم يدافع عن نفسه حتى أمامي، لم لا يمسح البصاق من على وجهه؟ مرت فترة أخرى قبل أن أستطيع أن أتمالك نفسي وأسمع منه بعض ردود مقتضبة زادنتي اقتناعا أنه كما قال الرجل وأكثر.

لم أستطع أن أنسى منظر الرعب الذي كان على وجهه مهما تغير المكان والزمان، وجهه، ويديه، وجسده، كل ذلك غارق في بصة الرجل التي تكاثرت بجات العرق المتقصد حتى تصورته يغرق في بركة نتنة وهو يكاد يختفي تحت ريم سطحها الأصفر بصفرة الموت.

"حادث فردي عابر"، "حادث غير قابل للتعميم"، كلام كثير كالأعتذار أو التفسير أو التبرير، أخذ ورد ومحاولات تفكير، لم ينجح أى شئ من هذا أن يحول دون أن أشاهد أفكاره كلها، أفكارنا، وهي تتفجر مثل الفقاقيع الهشة التي تغطي سطح الريم على وجه بركة البصاق والعرق، قبل أن يغوص فيها ببطء، تتفجر ثم تختفي في الهواء وكأنها لم تكن.

يبدو أنني كنت جاهزا لتسجيل هذا المنظر تسجيلا دائما تبريرا لشئ لا أعرفه، كيف أستطيع أن أستمر في تصديق كلام يقال بلا اختبار واقعي لإمكانية تحقيقه، كيف أفصل بين ما رأيت وما كنت

الأفكار التي لا تندمج هي
مواطننا وتحدد سلوكنا هي
صوتنا ونومنا ألفاظ داغرة،
هذا ما تعلمته نصبا عندي
مؤخرا، هي أجسام تحريبة
تدخل إلى عقولنا تطمسها
ونبيع أنفسنا لها ونحن نتصور
أننا نتخلص بها من الخوف
ونتجنب المواجهة

أسمع منه ومنهم طول الوقت؟

عجزت أن أعتبره حادثاً فردياً، مع أنه كذلك غالباً.

لم أستطع أن أكف عن إعادة تقييم كل الزملاء، من خلال علاقاتهم الخاصة ببعضهم ببعض، وبأنفسهم، أصبحت كلما اقتربت من أحدهم طالعتنى صفرة الموت، وتناثر البصقة، وحببات العرق البارد، وحيوان عاجز يتلمظ جوعاً واستجداء وهو يهز ذنبه يتابع فى شبق نهم رضية تحبو وهى لم تطفم بعد،

= ماذا حدث لى يا ملكة؟،

- ما علاقة ذلك بواجبنا المقدس.

= واجبنا مقدس.... نعم، ولكن كيف؟ من الذى سيحققه؟ بعد أن نخوض بحور الدم فوق جثث الضحايا نسلم القيادة لواحد مثله ونأتمنه على العمال الكادحين وهو لم يستطع أن يكون أميناً على طفلة ريفية لا خيار لها.

- حادث فردى، أسأت فهمه، لا تُعَمِّم، كل المؤسسات فيها وفيها، حتى رهبان الكنائس وشيوخ الطريقة.

= الكذب والصدق لا يتجزآن.

- ما دخل هذا بذلك.

= إما شرف، وناس، أو لندع كلا يسعى إلى مصلحته على مسؤوليته، وليتصارع الجميع فى النور،

- أى نور تتحدث عنه ياسيادة "المقدم"،

= نور الوعى بحقيقة الضعف وضرورة العدل.

- كلام يشبه الجد، وهو يشبه أكثر كلام رجال المباحث وسامسة البورصة.

= يجوز.

- تريد الناس ملائكة أطهاراً أولاً؟ أم نصنع المجتمع الذى ينشئهم كذلك.

= أنا لا أريد شيئاً، ولا أعنى شيئاً، أكاد أفقد الشئ والمعنى معاً.

- أنت تبالغ وكأنك من أصحاب الفضيلة، كل واحد حر، وهو مسئول عما يفعل.

= الحرية قبل تكافؤ الفرص خدعة أزلية. أى حرية كانت أمام خادمة ذات خمسة عشرة ربيعا؟

تصورى أنه قال لى مؤكداً وهو يفسر فعلته أن ما تم حدث باختيارها! المسألة أن اللعاب يسيل فى الظلام.... فى حين أن الخطابة تعلق إذا أضيئت الأنوار،

-..ماذا تريد الآن؟

= أريد أن أجد ميزانا واحداً للناس.... والمال.... والعواطف.... والكلام.

- مبدأنا فيه كل ذلك، لا تلوم المبدأ إن أساء تطبيقه واحد هنا أو هناك.

= منظره وهو ويرتعد فى ركن الحجرة ثم ما تلى ذلك مما صورته خيالى راح يزحف إلى كل

وعبى، وهو يشككنى فىنا جميعاً.

-... ماذا تريد؟ نترجع؟

= لا، لا أريد شيئاً، أنا أريد أن أنام.

- ذهبت إلى الطبيب وأعطاك أقرصاً، ولكنك لا تأخذها بانتظام.

= الأقرص لا تمسح ما حدث، وجوهكم أمامى تتورد بصفرة الموت تعلقها حبات العرق

صحيح أن الأفكار التى
اعتنقناها قد رحمتنا من
شعور الأقلية بالاضطهاد كما
أدرجتنا فى طبقة النوار
التقدميين، وجدنا أنفسنا مع
أقلية صنعناها بأنفسنا، مع
العمال الكادحين، كنا أقلية
بالولادة فأصبحنا حماة حمى
عمال العالم

والبصاق، إن ما يحرمنى من النوم ليس التفكير، ولكنها وجوهكم، ليس وجهه هو فقط بل كلكم، كلكم، ياه !!.

- كل من؟ هل تخاطبني ضمنهم يا غالى؟

= لا أعرف، اختلطت على الأمور.

- لم أعد أفهمك، ما رأيك نذهب إلى طبيب آخر.

-1-

إما أن أعيش كما تصورت يوماً للناس وبالناس بلا تفرقة ولا كذب ولا أقلية ولا أكثرية، وإما أن أهدم كل شئ بيدي حتى لو انهار المعبد على من فيه، حتى لو رجعت إلى سجنى القديم أتعاطى المخدرات الميتافيزيقية بمحض إرادتى، لماذا لم تهتز ملكة مثلما اهتزت أنا رغم أنى أنا الذى علمتها كل شئ، استجابت لى وأنا أحشر فى دماغها مالا شأن لها به، ثم ها هى ذى تتسمك به أكثر منى وتتركنى أتخبط وحدى، لماذا ارتاحت تماماً لهذا الحل رغم أنه حرما من أمومتها ذاتها، هل أجرو أن أعيد النظر فى علاقتى بها، أنا أحتاج إلى رعايتها المتفانية التى تحيطنى بها، هل هذا هو الحل السعيد؟ تطعمنى وتسقينى وتهز سريري- جسدها أحياناً- حتى أنام أحلم بالجنة والعدل والسلام على الأرض، ما كل هذا الإصرار على التمسك بأيدىولوجيتنا، لا أعرف لماذا صرت أشعر بوحدتى أكثر كلما لوحت بأيدىولوجيتنا المشتركة، جانب من نفسى لا أدركه يتنكر بوضوح لما أحاول أن أفنعه به.

تخلت عن جنة السماء هرباً من اضطهاد الأقلية ومذلتها فى مقابل أن نطم بجنة الأرض ونحن نصنعها صنعا، جنة السماء جنة مؤجلة لا يمكن التحقق من عدمها، جنة الأرض مصيبتها أنها تدخل امتحان التحقيق بسرعة، لماذا نتعجل اختبارها وقد رسبت فى معظم السنوات السابقة، حتى فى الملحق؟ هذا الحادث الأخير قَلَّبَ على التاريخ والجغرافيا، هو الذى استغاث بى وهو ينتفض كالفأر الهارب، أصبحت أشك فى كل شئ، كل أحد، حتى ملكة لم أعد أتقبلها بنفس الترحاب والطمأنينة، أشك فى عواطفها كلما ازدادت سخونة، تعودت أن توصل الطعام إلى فمى فى كثير من الأحيان، مداعبة فى الظاهر وعادة فى النهاية، ذات مرة رأيت حبات الأرز وهى تقترب من فمى على الملعقة فى يدها وكأنها شظايا ذرية، انتفضت يدي فتناثر الأرز فى كل جانب، وأخذت فى الاعتذار.

- مالك يا غالى.

= لا شئ، لدغة برغوت.

- تمزح، ليس عندنا براغيث، إلا إن كنت قد استوردتها من والدتك.

=... أنت أمى وأبى.

- أنا أحبك،

=..أنا أخجل مما تفعلينه أحياناً.

- تخجل من حبى يا حبى.

= أخجل من نفسى.

تواصل إطعمى، وتغطيتى، وإحضار الشاى باللبن إلى سريري كل صباح، كما تواصل ترديد أفكارى، والحماس لعقيدتى، بالأصالة عن نفسها والنيابة عنى، أتساءل: أى ملل يمكن أن يصاب به الإنسان فى الجنة؟

حين اقترحت استشارة طبيب آخر ذهبت وحدى أتحسس طريقى أولاً، ولكنها لحقت بى بعد البداية بقليل.

شتان بين حياة داخل أسوار
من الألفاظ الصلبة، هرباً من
الخوف إلى العلم بالمجمل،
وبين الحياة فى غابة
مكشوفة، صدرك حار وقترار
المستقبل بين يديك

كنت مع الأهلية - بالولادة -
وكان لى ربه يحمينى، وأبى

- يا ملكة، أشعر أن الأقرص كانت أسلم مهما فعلت، هذا العلاج الجديد تُطرح فيه أسئلة كثيرة وإجاباتنا المحفوظة لا تكفى يا ملكة، أخشى أن أتغير.
- تتغير، وهل هناك غير ما فسر لنا التاريخ ورسم المستقبل.
- = ياليت.
- طول عمرك وأنت قلق.
- = والأسئلة؟
- لها إجاباتها.
- = كلها؟
- يعنى.
- = وما يستجد من أسئلة!!

- سنترجمه إلى ما عرفنا من قبل، فنجد الأجوبة جاهزة وكافية.
أنا لا أنوى، ولا أريد، ولا أقدر أن أتغير، فلماذا أصر على الذهاب إلى هناك؟، الشغف إلى المعرفة وحب الاستطلاع يملكان على حواسي إلا أنهما لا يكفينا لتبرير المخاطرة، أحس أحيانا أنها خدعة جديدة، عقيدة سرية مطروحة في صورة علاج حديث، يشبهون أصحاب تجاربي الباكرا وإن كانت المواجهات أكثر حدة والمفاجآت أعنف والصياح أقل، أنظر إليهم واحدا واحدا وأحاول أن أجد وجه شبه يربطهم ببعضهم البعض فلا أجد، يحلم كل منهم بحلمه الخاص ويجمعهم حلم غير معن هو سر جذب هذا الرجل الطيب.

عبد السميع الأشرم هو أكثرهم إغاطة لى، نغم نشاز فى وسط فرقة لا تفعل إلا أن تمضى الوقت فى ضبط الأوتار قبل بداية اللحن الذى لا يبدأ أبدا، فكيف يكون عبد السميع وحده هو النشاز بالله عليك يا غالى؟ تكاد تفقد منطقك السليم إلا إن كنت تسمع لحنا خفيا تنكره.

عبد السلام المشد أكثرنا جدا وأعقنا ألما ولولا زوجته المصون الست فردوس لسألته عن السبيل إلى الطريق الهادئ الذى يواصل السعى فيه دون كلل، كمال نعمان أفر بهم إلى، صديق قديم، سبقتى إلى الانسحاب من طريقتنا المشترك لأسباب مختلفة، فنان بحق، يبدو أنه لم يجد شيئا آخر، فرحت حين وجدته معنا هناك، مجرد صدفة، وجدتها رائعة ومخيفة معا، تيقظ الحذر فى داخلى وهو ينظر إلى ملكة مع أن المعركة انتهت لصالحى من زمن، سمعتهما يتشاجران ولم أميز حديثهما أكثر من مرة، إبراهيم الطيب يتحدانى دون استقزاز، إما أنه بسيط لدرجة لم ألفها، أو أنه مسحور يتلقى تعليماته من تحت الأرض.

نجوى شعبان ممثلة بالحياة ولا أعرف مدى ما يمكن أن يذهب بها تيار تدفقها.
أتوقع أن تصادف شلالا عميقا تتحطم عليه كل أحلامها الغبية.
ما الذى حشرنى بينهم؟ كلما فكرت فى التراجع - مجرد فكرة- سهرت الليل كله حتى أقسم أمام المرأة أنى ذاهب، ولا أطمئن حتى يأتى الموعد وأتأكد أنى ذهبت، اطمئنانى هذا يثير قلقا فى الجانب الآخر، بسمة تونسنى فى وحدتى من بعيد، لا بد أن أعتزف أنى أذهب فى بعض الأحيان لأرتاح إلى أنها مازالت على قيد الحياة.

مختار ينتظر غمزة سنارته ولا أراه إلا وهو يصطاد كيفما اتفق، بشرته تنبض بحياة رخوة مغرية يظهرها أكثر وأكثر أنه فى أغلب الأحيان يجلس بجوار غريب الباهت وكأنه لم ير الشمس منذ ولد.

يسمع أحترفته له، وملكوته
ينتظرنى، حنيت أوقد ناراً
مضطهدة لكل من
يضطهدنى أو
يُهمّش همّيدنى

الآن، أميش أملا مستحيلا أن
يتساوى كل الناس بكل
الناس ولو هى الفرض
والأحلام، ليس أملا بل هو
واجب يومى، معرفته الفرق
ووجه الشبه بين ما هو واجب
يومى وواجب قومى

لم أستطع أن أنسى منظر

شيخهم ومساعدته يمارسان التبشير لعقيدة خفية في صورة طبية عصرية غامضة، لو كانت المسألة دعوة جاهزة لدين جديد لأمكن مناقشته، ثم قبوله أو رفضه، أنا تركت دين أهلي وذهبت مع الناس من الطبقات العاملة، لن أتنازل عن موقعي مع الأغلبية الكادحة، لو صدقت ما لا أعرف، سوف أجدني أعود إلى أقلية سرية ألعن من أقليتي التي لا ذنب لي في كوني ولدت منها، أرفض حلوله جميعا دون أن أعرفها حتى لو كانت مغلقة بأوراق العلم والتجربة، أشك في أنه يعرف شيئا جاهزا، يخيل إلي أنه يعرف شيئا قويا داخل كل منا شيئا، مشتركا تلمسه كلماته فينا، شيئا يبدو أنه يتجلى في كل منا مختلفا، لكنه هو هو .

- إلى متى تظل تذهب إلى هناك يا غالي؟
= إلى أن أعرف ماذا أريد، وماذا يريد هذا الرجل مني، أو لي، لنا.
- هذا الرجل خطير، هو عميل مزدوج، يعني، بل متعدد الولاء، لكننا لا نعرف أسياده الذين يجندونه.

= يجوز.

- مؤكد.

= لا شيء عاد مؤكدا.

-2-

- هل وجدت شيئا آخر يا كمال.

= أبدأ.

- إذن ماذا؟ هل نستمر بلا هدف.

= لا تقول نستمر، فأنت غيري.

- طول عمرنا معا، ولسنا معا، والله زمان.

= تركتكم وتركتم مبادئكم الرائع حتى لا أكون مع أحد، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- أبحث.

= منذ متى؟ تركتكم والأمور تمام التمام، لا تحتاج إلى مزيد من البحث.

- إعلان إفلاس الذات لا يُشهر في الصحف يا كمال.

= ولماذا لا نجلس في منازلنا ونبحث، حتى تكتمل السرية؟

- هل جئت تبحث عن الحل؟ أم تمحو ما وجدت من حلول؟

= لم يعد يهمني أن أجد الحل أو أفقده.

- والفرن؟ لاح لك يوما وكأنه الحل.

= لم يعد يكفيني.

- أشفق على وحدتك وألمك.

= لا أحتاج إلى شفقتك، وليس عندي أي استعداد لأبدالك مثلها.

- أريد أن أسمع منك.

= تعرف أنني لا أنصح أحدا، دعني أقولها لك بصراحة: لا تتراجع عن شيء قبل أن تجد بديلا ولو

مؤقتا، ما يجري هنا ليس بديلا أصلا.

- أنا لا أراجع، هو الذي يتسرب مني يا كمال.

= أسخف المعتقدات أفضل من لا شيء.

الرمح الذي كان على
وجهه مهما تغير المكان
والزمان، وجهه، ويديه،
وجسده، كل ذلك حارق هي
بصقة الرجل التي تكاثرته
بعبات العرق المتفصد حتى
تصورته يغرق هي بركة نتنة
وهو يكاد يختفي تحت ريم
سطحها الأصفر بصفرة
الموت.

الحرية قبل تكافؤ الفرص
خدمة أزلية. أي حرية كانت
أمام خادمة ذات خمسة
عشرة ربيعا؟

- لو كان سخفا لاحتملته، ليس المبدأ، المصيبة فى أهله، بشع ما وصلنى، بشع، - حيرتى يا كمال.

= مازلت تؤمن بالمذهب، ربما أكثر منهم، فلماذا انسحبت وتركتهم؟

- لا أعرف .. قل لى أنت

= قلت لك.... لست مثلى فلا تطلّ الإلحاح، إسأل نفسك عما أتى بك إلى هنا.

- ليست عندى إجابة، تصورت ذات مرة أننا نستبدل المرضى والمجانين بأصحابنا من المناضلين؟

دع الآخرين جانباً، مصيبتى مع ملكة أعظم وأخطر ولو أنى غير مدرك أبعادها بنفس الوضوح.

= لا يمكنك أن تستغنى عنها، إنها تعطيك كل شىء، فلا تتماذ فى إيذائها،

- أنا أحبها.... حتى وهى تخنقنى بعواطفها.

= هى إنسانة مخلصه إلى النهاية.... رغم اختلافى معها ومعك.

- مخلصه إلى النهاية؟ نهاية من؟

= إلى النهاية والسلام، إن كان لأى شىء نهاية.

- هى لا ترتاح لك وتتجنبك.

= أنا أرفضها، ولكنى أحترمها، مثابرة وعنيدة.

- هى تقول إنك هارب جبان.

= ...ربما لا تتعدى الصدق فى ذلك.

هذا الرجل!! هذا الرجل يعترف بعيوبه وكأنها عيوب غيره، هرب بجده، ثم يثينى عن الهرب، أفضل ما فى الوجود أن تؤمن بشىء مائة فى المائة، أى شىء، ملكة كانت مؤمنة بكل الطقوس الميتافيزيقية القديمة، ثم هاهى ذى مؤمنة بكل الطقوس الجديدة، لماذا لا أفعل مثلها؟ وكمال، عكس ذلك، لا هو وصل إلى شىء، وهو لا يريد أن يصل إلى شىء، أنا على وشك أن أفعل مثله.

أنا لا أجد مبرراً للتراجع، نفوس الناس ضعيفة لكن المبدأ ليس به عيب، لا بد من العدل والمساواة، لا بد من البدء بلقمة العيش، ثم يكون بعد ذلك ما يكون، عقلى يكاد يشك يا ملكة.

- للمرة الألف يا ملكة: فلينهر من ينهار، المبدأ لا غبار عليه.

= ما فائدة أن تردد الصواب طول الوقت، ثم تفعل عكسه؟

- لكن هذا الذى انهار هو الذى سيحكم البلد اذا ما استولينا على السلطة.

= توزع المناصب الوزارية من الآن؟ تبرر موقفك وأنت تمهد للتراجع.

وحتى لو كان طريقنا الأول هو الطريق الصحيح، فكيف أتمسك به وقد طمست معالمه داخل نفسى، وهل البديل أن أحضر هنا مع هؤلاء المجانين؟ هل أنا مريض مثلهم؟ ملكة تكرر كل جهودها لكى أكف عن الحضور فأرد عليها تلقائياً بأن أعاند وأحاور وأدور دون اقتناع كامل من داخلى، يا ليتنى لا أحضر، لو كفت يا ملكة عن القفز والتشنج، فلربما فكرت أنا وعدلت وحدى، أنا لا أتق فى أحد منهم، مازلت أشعر بانتمائى للأقلية، أى أقلية، أينما ذهبت فأنا الأقلية وهم الأكثرية، كيف أتق فيهم أو فيه؟ أخشى أن يتكشف هذا الطبيب عن خدعة نذلة مثل صديقى عالى الصوت المتكوم فى ركن الحجرة فى بركة العرق، وتتأثر نَسَن البصقة، وبقايا شحوب الموت، بشعة، صورة بشعة، حمار جائع يشم مؤخرة غزال حديثة الولادة، ماذا لو جمع السلطة فى يديه؟ يدعو إلى تأميم المصانع ويبدأ بتأميم خادمة الجيران لصالحه، يتحاشانى منذ الحادثة.... صوته أصبح أكثر ارتفاعاً ونبرته أكثر حدة، صوته أحياناً يصلنى وأنا فى سرحات خيالى وهو قابع فى ركن الحجرة ينتفض ممسكاً صولجاناً

تصورى أنه قال لى مؤكداً وهو يفسر فعلته أن ما تم حدثه باختيارها! المسألة أن اللعاب يسيل فى الظلام.... هى حين أن الخطاب تعلو إذا أضيئت الأنوار

إما أن أعيش كما تصورت يوماً للناس وبالناس بلا تفرقة ولا كذب ولا أقلية ولا أكثرية، وإما أن أهدم كل شىء بيدي حتى لو انهار المعبد على من فيه، حتى لو رجعت إلى سجنى القديم أتعاطى المخدرات الميتافيزيقية بمحض إرادتى

السلطة مصدرا فرمانا يقول "رجال الحزب أولى بالحريم من ذويهم"، أكتشف أن خيالي كان يتربص بي الناحية الثانية.

متى أكف عن التذكر والتفكير؟ ..متى يكف خيالي عن المبالغة والتشويه؟ ماذا جرى لي...؟ هذا الزعيم المزعوم ليس كل الناس، ليس كل الرجال، وليس كل الثوار، أحس أنني أبالغ في التشويه لأبهر هربي، كلما اتسعت الرؤية غمرني هلع غامض.

-3-

- رجلى على رجلك... ولو حملوني على نقالة.
- = هذا انتحار، حرارتك أربعون والطبيب أمرك بالراحة التامة.
- كيف تتركني وأنا بهذه الحالة مادمت تعلم بخطورتها؟
- = مثلما تركتك إلى العمل في الصباح.
- العمل شيء، وهذا شيء آخر.
- = أنت تعلمين أهمية الذهاب وتحرصين على أن نتعجل النهاية.
- إنه مثل الماء المالح، كلما ذهبنا إليه اضطررنا للذهاب أكثر.
- = فليكن... ولنشرب الماء المالح حتى نتقيأ.
- أنا فعلا أكاد اتقيأ كلما ذهبت، ربما ارتفعت حرارتي من ذهابي معك.
- = لن تأتي معي اليوم.

هذا الرعب الذي يملكها من هذه الرحلة الأسبوعية يثير داخلي ويدفعني للتحدى بلا حدود، أكتشف أنني لا أتحدى إلا نفسي، لماذا لم ألاحظ على إبراهيم بعض ما أنا فيه؟ ملامحه مثل الصخر لكنها مغطاة بخضرة زرع مجهول المصدر، ترى هل وصل إلى الحل الأسعد أو أنه في غيبوبه سرية؟ انتهزت فرصة تخلف زوجتي هذه المرة وانتحيت به جانبا.

- = كيف ترتاح هذه الراحة والناس جوعى يا إبراهيم؟
- ماذا تريد يا غالى، وأين ملكة؟
- = أريد أن تعطينا مما أعطاك الله.
- لم يعطني الله شيئا، أنا الذى أسعى فى الطريق اليه.
- = إلى الله؟
- وإلى عطائه؟
- = أنت لست مثل عبد السميع، أنت أعقل من ذلك.
- لا أحد مثل الآخر.
- =... وكيف ستوصل عطاء الله إلى الجوعى، أفادكم الله؟
- جوعى! كيف؟
- = لا يوجد إلا جوع واحد، جوعى للقمّة والغموس.
- وهل أنت جائع أم هارب؟
- = ... فى ظل النظام القائم يمكن أن أجوع فى أى لحظة.
- وإلى أن تجوع بإذن الله، ماذا أنت صانع؟
- = أحمى الجوعى من حشيشك وأفيون عبد السميع.
- بالله عليك، من الذى يتعاطى الأفيون؟ تهرب من جوعك فى الحديث عن جوع الناس ثم تتهم

تخليت عن جنة السماء هربا من اضطهاد الأهلية ومدلتها فى مقابل أن نحلّم بجنة الأرض ونحن نصنعها صنعا

جنة السماء جنة مؤجلة لا يمكن التحقق من محمها، جنة الأرض مصيبتها أنما تدخل امتحان التحقيق بسرعة، لماذا نتعجل اختبارها وقد رسبت فى معظم السنوات السابقة، حتى هى الملحق؟

الناس بالتعاطى، أنت لا تكاد تفيق من مخدرات مستوردة تعميك عن نفسك وعن ناسك الذين لا تعرفهم إلا من الكتب.

- = أكلّمك لأعرف عنك أكثر، تَسْتَشِيخُ حتى تكاد تعظنى أن أدخل دينك.
- لم أعلن دينى لأحد، أنا أحاول ألا أذع نفسى، هذه هى الحكاية.
- = أنت مرتاح لأن دينك هو دين الأغلبية فلا خوف من الاضطهاد والنبذ.
- دينك داخلك فدعه يترعرع بلا إذن من ملكة ولا خوف من كمال ولا حساب لعبد السميع، ساعتها ستعرفه كما ستعرف الناس الذين تتحدث عنهم، وتحس بهم.
- = دعوتكم هنا خطيرة إلى الإحساس يا إبراهيم، ماذا لو أحس الجوعى.
- يقتلون الشبانين.
- = وقد يقتلونك أول الناس؟
- قد يكون هذا هو الحل.
- = أنت يا إبراهيم تقول ذلك؟
- الإنسان - ليحيا - إما قاتل أو مقتول.
- = حسبك مسالم حتى النهاية.
- أحيانا يكون القتل هو طريق السلام.
- = لا أفهمك.
- أعيش مشاعر القتل لتصهرنى وأنا أقترب منك مسئولا عنها، رغم اختلافنا.
- = هذا خطر، و.. و.. غير مفهوم.
- فهمته لحظة ثم تراجع.
- = فهمته أو لم أفهمه هو خطر.
- مجرد وجودنا فى الحياة خطر.
- = كلامك مرعب وقد كنت أحسبك فى سلام حقيقى.
- إذا أردت أن ترى من زاوية أفضل فحاول ألا تخاف من خوفها.
- = خوف من؟
- "ملكة"....
- = إبراهيم؟ هل وجدت حلا؟
- أنت حَلِّى.
- = أنا؟
- أفتاك بلا مجاملة.
- = كلامك يرعبنى يغربنى بالاقتراب، فيحمنى منك جوع الناس.
- نحن لا نصل إلى الناس إلا من خلال أنفسنا.
- = ملكة لا تصدق شيئا من ذلك، إصبعها تشير إلى المخبرات الأمريكية تفسيرا لأى محاولة للمراجعة، هى تسمى حكمتكم حكمة الكراسى الوثيرة.
- هو طريق أطول، وربما أضمن أو أخطر.
- = هى تفكر فى جوع الناس ليل نهار.
- هل هذا يسمح أن يحل "التفكير" محل "الجوع" ومحل الناس بالمرّة.

أنا تركت دين أهلى
وذهبت مع الناس من
الطبقات العاملة، لن أتنازل
عن موقعى مع الأغلبية
الكادحة، لو صدقت ما لا
أحرفه، سوف أجدنى أعود
إلى أقلية سرية ألعن من
أقليتى التى لا ذنب لى هى
كونى ولدته منما

حتى لو كان طريقنا الأول
هو الطريق الصحيح، فكيف
أتمسك به وقد طمست معالمه
داخل نفسى

- = الجوع هو المشكلة الرئيسية.
- بل المشكلة الأولى، نحن إما نعيش ونحن نحس ببعضنا البعض أو يأكل بعضنا بعضا.
- = أشعر أننا في محل توصيل الطلبات للمنازل "تيكاواي" "سندوتشات إحساس بالصدق الحار والليمون المتبل بالصحة والتطور." ويذهب الناس في ستين داهية.
- الناس الناس؟ وأنت وملكة أستمنا ناسا؟
- = لا نكون ناسا إلا بهم.
- أنت تخلط بين الحديث عنهم والتمسح بهم، للناس يا غالى نبضٌ آخر.
- = كيف؟
- المواجهة مستمرة.
- =... رعب أزلنى، يعوق الأنبياء أنفسهم.
- لا بديل لذلك.
- = كلام حلو.
- أنت الأهل.
- = إبراهيم.
- نعم.
- = الله يخرب بيتك.
- ... حصل.

لا أستطيع أن أكذب بسهولة يا إبراهيم، لا أرى طريقا واضحا ولا بديلا حقيقيا، سمعت مثل هذا الكلام مرة فى جلسة حشيش تنتزع القهقهات من جوفك دون المرور على قلبك، تتصاعد موجات الإحساس الزاعق على نغمات عود ذلك الشيخ العجيب الجميل الضرير، أوحشتنى جلستهم، سوف أذهب إليهم لأعرف إلى أى سماء طار بهم الدخان الأزرق، لعل حشيشتهم تتحدى أفيونك يا إبراهيم، أنت وشيخك المغرور.

-4-

الشيخ الضرير النحيف يمسك بعوده فى حب غامر، يشرئب بعنقه إلى اليسار أكثر منه إلى اليمين فى حركة لولبية تشبه مسيرة التطور، يرتشف ريقه باستمرار وكأن صنوبر الوعى قد انساب بلا انقطاع فى تجويف فمه، شعره الأجدد ولونه الأسمر وعنقه الطويل يذكرنى بأثار القدماء، حركات وجهه كلها إحساس صادق يا إبراهيم، هأنذا أوقظ إحساسى مباشرة بأنفاس الحق الأزرق، ملكة سعيدة بهذه الزيارة وتأمل أن يعود ما انقطع ولو من خلال غابة الجوزة، حين عرضت عليها الذهاب لسماع الشيخ، قالت إنها تفضله عن شيخ المنسر طبيينا المجنون، ضربات العود تخرج بغير انتظام وأصابع الشيخ تعبت فى مفاتيحه استعدادا للسهرة، والدخان الأزرق يملأ الجو فى سحر أصيل، الطلبات تنهال على الشيخ فى وطنية اشتراكية، وأحيانا فى عروبة قومية.

- نريد أن نسمع شيئا جديدا.
- الجديد فى الحديد، والجنرات يذكرنا بما تحت الباط.
- بطاطنا سخنة.
- وصاحبة الجلالة تحب البلبلة السخنة.
- وحمص "الشام" المتحدة.

متى أخفض عن التذكر والتفكير؟ متى يخفض خيالى عن المبالغة والتشويه؟ ماذا جرى لى...؟ هذا الزعيم المزعوم ليس كل الناس، ليس كل الرجال، وليس كل الثوار، أحس أنى أبالغ فى التشويه لأبدر هربى، كلما اتسعت الرؤية حمرنى هلع تامض

بأنه عليك، من الذى يتعاطى الأفيون؟ تهرب من جوعك فى الحديث عن جوع الناس

تتفجر القهقهات فى عدوان قاس، والشيخ يرتشف ريقه فى انتصار وزهو بالغين، يقدم أحدهم إليه الجوزة.

- إسحب لك نفس، واستفتح.
- الانسحاب هذه الأيام هو للأمام يا فاضل.
- ليس لدينا حجة بعد العبور.
- سحبوا البساط من تحتنا بلعبة أمريكية رائعة.
- سحبوا البساط بجهاد رجال البلاط.
- حلقة جديدة من مسلسل "الوطواط".
- ... مغامرات السوبرمان، فى قصر السلطان.

تفتح الأفواه، وتتطلق منها الأصوات عنيفة كالضحك، شلالات تجرف معها كل شئ، ملكة متحمسة أشد الحماس وتطلب من الشيخ أغنية خاصة.
يقول الشيخ:

- عقبال عوضك يا ست ملكة يا سكره.
- يقول أحدهم.
- سندخل العوض مع المطالبة بحقوقنا فى حقول الملائنة.
- من بنود الاتفاق السرية أن لهم الحق فى زراعة الصحراء بالمكرونة الأسباجيتى،
- دخلت إيطاليا طرفا رابعا فى الاتفاق.
- فلتعش صوفيا لورين.

..وانا وانت،
- ولورين وهاردى.

ثم موجة أخرى من الضحك السالف الذكر، أين أنت يا إبراهيم يا طيب حتى تسمى هذا الشئ باسمه يا حامى حمى الإحساس الفطرى يا غبى.

أواصل سحب الأنفاس، فتنفخ عضلات وجهى وتتباعد ملامحى وتخرج منى أصوات مقهقهة، ليس لى أدنى علاقة بها.

قال أحدهم دون مناسبة:

- هيا نلعب قطرا.

رد آخر فى سعادة خاصة:

- قطر الندى خالة أفندينا.

تصورت أن أحسن مينة لابراهيم الطيب هو الرجم بالقباقيب، ألم يقل أن الحل هو الإحساس: يا قاتل يا مقتول، فليمت وهو فى غابة الإحساس بضرب القباقيب، ولتعلم عظامه معنى السحق، وبذلك يكون قد أحس حتى النخاع، قهقه الجميع وهم ينظرون إلى فخشيت أن يكونوا قد سمعوني وأنا أفكر مع أنى لم أفتح فمى.

أطل على وجه "بسمه" فجأة ولكن لحقه على مسافة وجه إبراهيم وهو ينظر إلى من ركن الحجره فى سخرية صعبة، وجدنتى قادرا على أن أرد عليه بنفس عدوانه المغلف بكلام الحب الجسور: "سوف أريك معنى الإحساس ياراتق يا ابن الكلب، سوف أومن بجهنم خصيصا لأراك فيها وبئس المصير، أنا سوف أدخل الجنة فى الحاليتين يا أبو خليل: لن أحدد لك الحاليتين حتى لا تفلسفها وأنت لست فاهما

ثم تتمه الناس بالتعاطى، أنته
لا تكاد تهيق من مخدراته
مستورحة تعميك عن نفسك
ومن ناسك الذين لا تعرفهم
إلا من الكتب

نحن لا نصل إلى الناس إلا من
خلال أنفسنا

المشكلة الأولى، نحن إما
نعيش ونحن نحس ببعضنا

حاجة، يطل على وجه "بسمه" من بين ضلقتي خيمة من الحرير، أخطفها على حصان أبيض من رعايا كنيسة العذارى، نظير إلى جنة عمنا ماركس وهي تذكرني أنها لا تحب اللون الأحمر.

أنظر إلى ملكة بعد مزيد من الأنفاس فأرى ملامح وجهها تتضخم، أتسحب في هدوء النملة فوق أنفها الجبلي محاولاً أن أتجسس على جهاز المخابرات المركزية الذي تخبئه في تجويف أنفها لصالح الطبقة التي لانعرف عنها شيئاً، أخنفي وراء صخرة من الجرانيت على الجبل الشرقي، قبل أن أتبين أنها وحمة الزببية التي تظن أنها سر أنوثتها، صحت في استغاثة.

- يا سيدنا توما الاكوييني... مدد.

رد الجالس بجوارى،

- إكوييني مرة، وإكوييني تانى....

انطلقت دفعة جديدة من الطلقات السريعة المقهقهة حتى كدت أصاب بشظايا مختلفة الأحجام، أثلثت حوالى لأبحث عن جحر فأرأختبى فيه، ولكنى أفضل الاختباء في ثقب المفتاح لأمنعهم من الخروج حتى يواجهوا مصيرهم المختار، أغلبهم يتعاطى المنزول بدرجة تائر، بعضهم من هواة الثقافة وهم يعمقون إحساسهم بإبراهيم بموسيقى السيمياء الصامتة، قعدة أرخص من جلسة طبيبك المأفون، أقترب من اكتشاف السر تحت تأثير هذا العقار الساحر، نجاح قانون البقاء يتوقف على نوع المخدرات وعمرها الافتراضى، الأفيون الحديث تخطى أجراس الكنائس وأعلى المآذن إلى الكتب والعقائد، ثم إلى عيادات الأطباء، العاقل هو من يبحث عن أقصر السبل وأرخصها، لا تستجاب دعوة مسطول ثورى إلا بإذن كتابى من جماعة الثوار المتقفين الموسيقيين العرب، لولاك يا ملكة يا بنت أبو مناع يارية العفاف والجدل، لكنك الآن فى السجن أو فى السرايا الصفراء، بفضل حساباتك وثورتك البيئية التى تالفينها فى محشى ورق العنب: هأنذا أمارس الاشتراكية الزرقاء تمهيدا للثورة الحمراء بعد الانقلاب السكلاما المخطط تكتيكيا دون مساس باستراتيجية الهرب المستمر.

قالت لى ملكة ونحن على الباب.

- رأيتك هائصاً مثل زمان.

= وسيلة أسرع لإيقاظ الإحساس، مادام الإحساس هو السبيل إلى الثورة الحقيقية

- لا تردد كلام شيخ المجانين، هنا أصل السعى إلى الحقيقة.

= أنت الحقيقة الوحيدة فى حياتى يا ملكة لأنى أملك بيدي، وكله زائل إلا وجهك.

بدت على وجهها سعادة مختلطة بخوف، وحذر، ورفض وكأنى أعنى ما أقول.

دون إنذار، انفجرت باكيا فى التاكسى فزعا قبل أن ألحظ نظرة زوجتى الملتاعة الزاجرة الملتزمة، سيطرت على نفسى بسرعة، وخطر بعقلى بيت من الشعر لا أذكره.

-5-

المظاهرات تملأ الشوارع وأنباء تقول أنها لا تهدأ بمرور الوقت، لم أشعر أن الله تخلى عنى تماماً مثلما شعرت ذلك اليوم، حقيقة أنى تخليت عنه من سنين ولكنه هو لم يتخل عنى بهذا الوضوح والصرحة مثلما حدث هذا اليوم، انتهزت ملكة فرصة الاضطراب والتحطيم وأخذت تهاجمنى بلا هوادة، شعرت بالعجز والحيرة والرفض بطريقة أحسست معها أن الموت هو الحل، رحلت أهتف فى وحدتى "يارب"، رغم يقينى بأنه غير موجود، كنت أحتج عليه أملاً أن يحمينى من هجوم زوجتى الشامت وكأنها هى التى قامت بهذه الاضطرابات لصالح إثنائى عن العلاج، أحاول أن أخفى عنها

المظاهرات تملأ الشوارع
وأنباء تقول أنها لا تهدأ
بمرور الوقت، لم أشعر أن
الله تخلى عنى تماماً مثلما
شعرت ذلك اليوم، حقيقة
أنى تخليت عنه من سنين
ولكنه هو لم يتخل عنى بهذا
الوضوح والصرحة مثلما
حدث هذا اليوم

هربى إليه وهو غير موجود.

- غالى، هل اكتفيت بالتدريبات الداخلية فى مصنع العواطف المستوردة؟

= أحتقر نفسى ولا أعرف كيف أشارك الناس حقيقة مشاعرهم؟

....-

....-

- لا مفر من المشاركة، هذا هو الحل الحقيقى، الشارع يغلى.

=.... دعيني أفكر.

- أفسدك العلاج.

= أحسن.

طرقت باب السماء فإذا بها مازالت بلا أبواب، مجرد انعكاس الضوء على ذرات لا تُرى، ليس للسماء باب كما أنه ليس للأرض قاع، كل شئ قبيح خادع ولسوف تنتهى المظاهرات إلى لا شئ، سوف تعتبرين نفسك بطلّة التحرير وتأخذين نيشان الصياح الأعلى، ثم تعود الحياة كما كانت، نخدع أنفسنا بأحلام ليست أسعد ولا أقرب من أحلام الجنة المفقودة وعضو الأب فى الأعلى، المسرة ليست بالناس ولا بالجان، المسرة خدعة الأفيون القديم، والسلام حجة العاجز، وها هو ذا الأفيون الحديث يتضاءل تأثيره مع استمرار الإدمان.

آخر صيحة فى المخدرات الأحدث هو ما وجدته عندك يا دكتور عبد الحكيم، تتكلمون عن الحب "هنا والآن" وأنا لم أعد أفهم أى معنى لأى كلمة بعد أن انهارت كلمات المسرة والمحبة والسلام، ثم انهارت كلمات المساواة والعدل والكفاح.... لعبة الثلاث ورقات بشكلىن مختلفين، فأين أخفيت البنت القلب يا ملكة يابنة مناع؟

= إذن ماذا؟ ما هذا الحب يا إبراهيم الذى تتحدثون عنه؟

- هو الحياة.

= سئمت التعاريف الشعرية، أنا جاد.

- وأنا لا أمزح، أنا أراه فى كل حركة من أول طنين ذبابة حتى ذروة الشهوة بين ذراعى امرأة مؤمنة.

= مؤمنة؟ مرة واحدة؟ ما لك جاهز بهذه الألفاظ يا إبراهيم بهذه البساطة؟

- أنت خائف يا غالى من كل شئ؟

= لقد فترت تجاه زوجتى بعد أن اكتشفت أننا كنا نكذب طوال هذه السنين، وأنها كانت تتصنع الاستجابة لى لمجرد إرضائى.

- ثم ها أنت تحاول طرق أبوابها.

= أية أبواب؟ ربي القديم تخلى عنى، وأبوابهم لا تفصل إلا بين الفراغ والظلام.

- أنت الذى تخليت عنه، عاود الطرق يا غالى، وسوف تستجيب الأبواب أسرع.

= أنا الطارق؟ وأنا المجيب معا؟

- نعم؟ .. نعم؟

= هذا ما خشيتّه حين قررت أن أحادثك، توقعت أنك سوف تضيعنى فى ألفاظك الحاملة الغامضة،

يلوح لى أن الحل عندك، ثم تتركنى كما كنت وألعن، أنت أعظم كذاب فينا، بل فى الدنيا كلها، يا إبراهيم.

رحمت أمتفد فى وحدتى
”يارب“، رغم يقينى بأنه خير
موجود، كنت أحتج عليه أملا
أن يحمينى من هجوم زوجتى
القائمة وكانها هى التى
قامت بهذه الاضطرابات
لصالح إنسانى من العلاج،
أحاول أن أخفى عنهما هربى
إليه وهو خير موجود.

تتكلمون عن الحب ”هنا
والآن“ وأنا لم أجد أفهم أى
معنى لأى كلمة بعد أن
انهارت كلمات المسرة
والمحبة والسلام، ثم انهارت
كلمات المساواة والعدل
والكفاح

- ... لكل واحد حله الخاص، مهما تشابهت البدايات فالمصير هو نتيجة ما نختار،
 = مصيرى يقترب من النهاية أسرع مما تحسبون.
 - بل إنى أراك تتقدم للأمام رغم بطئك.
 = سأقترح على جلاله مولانا نور الدين أن يعيّنك حامل أختامه، تقسم الناس إلى متقدم ومتأخر،
 لو أنك تعرف ماذا تقول أو تدرك معنى للحياة لرأيت كيف أنى فى مصيبة لأعرف لها بداية ولا
 نهاية.
 - أعرف ذلك وأنتظر.
 = مصيبتى هى أنى كفرت مجاناً، وحين عدت أطرق بابه لم أجد أحداً يرد.
 - ولكنك فى طريقك للإيمان.
 = تتشفى فى يا إبراهيم أم تبشرنى بدينك فى حظيرة الأغلبية؟
 - ماذا تقول يا غالى؟
 = يراودنى خاطر ملح أن أرجع إلى دين أهلى بإصرار، أحتمى به منكم ومنهم، حتى لو عادت
 معه مشاعر الاضطهاد والنبد، فهى أفضل من الضياع والوحدة.
 - وهل تستطيع أن ترجع؟
 = لم لا؟
 - جرب.
 = تسخر منى؟
 -... أنا أحترمك يا غالى، وأحترم استمرار محاولة صدقك.
 =... كلما رأيت طمأنينتك يا إبراهيم ازددت عدواناً عليك، كدت أفتلك فى خيالى ضرباً بالقباقيب.
 - طمأنينتى أنا لا تتفكك، لن يطمئنك إلا استمرارك، استمرارى ليس لحسابك، لكنه يصب فىك،
 وفينا.
 = ردودك تخترق عظامى وتغرينى باتهامك، أو احتقارك، أو تكذيبك.
 - الصدق فى المحاولة، لا توجد آراء صادقة، وإنما محاولات صادقة.
 = صدق مؤلم، يكاد يعجزنى.
 - من يعجز فى النهاية هو الخاسر.
 = إذن لماذا لا تساهم فى العمل السياسى، معنا؟
 - ما هذا الذى نعمله ليل نهار؟ أليس عملاً سياسياً؟
 = أعنى تنظيمنا تحديداً.
 - كل الطرق الجادة تؤدى إلى "وجهه".
 = وجهه أم وجه الناس؟
 - وهل يوجد فرق؟
 = ... هذه هى مصيبتى معك، كلما تحدثت بمثل هذا الكلام مادت الأرض تحت قدمى ولم أعد
 أفهم شيئاً.
 - بل تفهم، ولكنك لا تأخذ بالك.
 = لا تحيرنى وتزيد الأمور إلغازاً، قل بصراحة هل أنت معنا؟
 - طبعاً، رغم أنفك.

لقد هترت تجاه زوجتى بعد
 أن اكتشفت أننا كنا نكذب
 طوال هذه السنين، وأنها
 كانت تتصنع الاستجابة لى
 لمجرد إرضائى

يراودنى خاطر ملح أن أرجع
 إلى دين أهلى بإصرار،
 أحتمى به منكم ومنهم، حتى
 لو عادت معى مشاعر
 الاضطهاد والنبد، فهى أفضل
 من الضياع والوحدة

= أنفى أنا؟ رغم أنف ذلك المسئول عن انهيارى.... ملْتَهْمُ العذارى المشويات.
- لا تهرب من مسئوليتك يا غالى... حكيث لك أن امرأتى فى أحضان من لا يعرف اسمها،
ووجدانى يصطلى بآلام الوحدة والهجر، ومع ذلك تصر على تبرير انسحابك لأن فردا هوى تحت
وطأة نزوة.

= المسألة ليست مسألة فرد، بل ما أثاره هذا الفرد من تساؤل حول طبيعة مَنْ مِنْ الثوار
يستلم السلطة.

- يا أذى... ! يا أذى... ! قانون البقاء سيلفظ هذه الفقاقيع على الجانبين.

= وإلى أن يلفظهم ، كم عدد الضاحايا الذين سنقدمهم قرايين ونحن ننتظر؟

- هذه هى ضريبة المحاولة.

= حيرتنى يا ابراهيم، أنت بعيد قريب، تدافع عنهم وأنت غريب عنا، أخشى أن أكتشف فيك
أكبر كذبة..

- يا أذى أطلع كذايا، أذهب فى ستين داهية، كل هذا لايرر ضياعك أو انسحابك.

= إبراهيم: صورة ملكة تخيلنى، وأنا خائف،

- معك حق.

-6-

حين فترت عاطفتى تجاه، زوجتى تفتحت بشكل مخجل نحو "بسمة"، لا بد من حب حقيقى جدا،
وخاص جدا، حب يملؤ حياتى ولا يدع لى مجالا للتفكير فى أى شئ لا قبل الموت ولا بعد الموت، لم
أعد أثق فى الأصل،.... ولا أقبل الهروب الجماعى تحت أى عنوان ولسوف أفعل ما أريد.

- ماذا تريد؟

=أن أعيش بأى ثمن.

- أنت حر.

= ياليت،

ماذا أريد منها على وجه التحديد، ليست على دينى ولا فى سنى، ولم أتجاذب معها الحديث إلا
مرات قليلة، ومع ذلك فهى تشغل بالى هذه الأيام بطريقة مخجلة، ومضحكة، وأحيانا ممتعة، لا أنكر
أن خيالى سرح بضع مرات فى مناظر جنسية مع نجوى مصباح، أما هذه العصفورة فهى لا تثير فى
الحيوان وحده بل تعيدنى إلى دنيا ذات طابع خاص ، خيالاتى الجنسية معها لها رائحة عطرة، حبات
عرقى الجنسى تتفتح فيها زهور بيضاء وينطلق من أكمامها عصفير منتشية.أليس هناك سبيل إلى
الاتصال بها دون أن تتهار أحلامى أو أفْتَلُ رميا برصاص ملكة مناع زوجتى العزيزة، سوف
أكتب لها خطابا أعبّر فيه عن كل ذلك، هذا هو الطريق الأسلم.

"حبيبتى بسمة...

لا تتعجبنى من ندائى لك بحبيبتى، هذا قدرى، أقولها دون لف أو دوران، أنا على غير دينك، لكنى
بلا دين، فلا تضعى العوائق بيننا بلا مبرر، السن لن يحول بيننا لأنى لا أريد منك شيئا له دخل بالسن،
لقد جنّت هنا بلا عقيدة ولا مستقبل فما الذى جاء بك فى هذه الساعات المبكرة من العمر؟ هل نسعى
جميعا إلى هدف مشترك لا نعرفه؟ نحن نقترّب بعضنا من بعض دون قصد معين، الذى يهمنى أنى
اقترب منك أنت على وجه الخصوص، أنا أحبك يا بسمة، أنا لم أحب أحدا أبدا، أحلم بك ولا أشوهك
بالجنس حتى فى الحلم، أرفض لك حزنك، هذا الحزن مؤلم فى هذه السن الحلوة، أريد أن أتسحب تحت

ماذا أريد منها على وجه
التحديد، ليست على دينى
ولا فى سنى، ولم أتجاذب
معا الحديث إلا مرات قليلة،
ومع ذلك فهى تشغل بالى
هذه الأيام بطريقة مخجلة،
ومضحكة، وأحيانا ممتعة

ملاح وجهك لأرى حقيقتك، فرحتك، ألقى بين عينيك بقشرة ترمسه ونحن نسير سويا فى صمت على شاطئ النيل فتضحكين مثل رضيع يتعرف على صوته لأول مرة حبيبتي بسمه.

ربما أنت الوحيدة التى تستطيعين مساعدتى فى محنتى التى ورطت نفسى فيها دون مبرر، كيف تساعدنى؟ لست أدرى؟ ولكنى أحبك.

توقيع: "غالى جوهر".

راجعت الخطاب مرتين ولم أصدق أنى أنا "غالى جوهر" الذى كتبتة، نظرت إلى وجه امرأتى وهى نائمة تجز على أسنانها فى تَنَمُّر، تسحبت إلى الحمام وكومت ورقة الخطاب فى إصرار وخوف وألقيت بها فى الماء وأخذت أشاهدها وهى تدور حول نفسها مع تيار الماء المتدفق، ثم تتسحب بقوة إلى مكان عام حيث يختلط كل شىء بكل شىء.

هل هذا هو ما تفعلونه بالحب الخاص يا إبراهيم يا طيب؟ حين تتكلمون عن حب كل الناس لكل الناس، تعيشون فى الكذب ليل نهار وأنتم تدورون حول أنفسكم فى عيادة طبية مثل دورات هذا الخطاب فى قاع الماء القذر، الناس لا تتساوى إلا فى مكان عام مثل مصير هذه الورقة المطوية، ما أبشع خيالى ولكنى أحاول الصدق حسب وصاياكم العشرة.

ما أبشع الكذب حين يسمى بغير اسمه، حين يسمى الأفيون الحديث مُنَبِّهًا للوعى... إسمع يا إبراهيم:

أنا ذاهب غدا إلى الكنيسة دون أن أقول لكم، وسأعترف بكل ما كان.

-7-

"جوهر غالى جوهر"، هل هذه هى نهاية المطاف؟ أو لعله بدايته.

ماذا بعد أن قبل أبونا اعترافى وانتصرت ملكة على خوفنا، فأهدانا الرب هذه الجوهرة الغالية النادرة؟ ولد ليس كمثل الأولاد، نتاج المعاناة والصبر، زهرة العمر "جوهر غالى جوهر" ما هذا الذى كان قد حدث بعقلى حتى أحرم ملكة وأحرم نفسى من هذه النعمة التى ستزيد عدد شعبنا المظلوم على أرضنا التليدة، نحن الأصل، ما أغباك يا نجوى حين تركت طفلتك إلى هذا الضياع الذى كاد يطير بصوابى، ولكنك تراجعى فى آخر لحظة حين قبلت الارتباط بإبراهيم، هذا هو عين العقل، سوف تعرف معنى الحب يا إبراهيم من الآن فصاعدا.

من الغرور والغباء والأنانية يا كمال يا نعمان أن نحاول أن نحقق فى حياتنا ما ينبغى أن يحققه أولادنا وأولاد أولادنا، قال أبونا فى موعظة الأحد الماضى كما كان يقول دائما: "المجد لله فى الأعلى....."، فهمتها ربما لأول مرة على كثرة ما ترددت على أذنى، كيف تحاول أيها العبد الحكيم - متخفيا تحت ستار العلم والطب - أن تجعل المجد للإنسان فى عيادتك القذرة، أما أنت يا ملكة، فلولا صبرك على هذا الصبر لضاعت الأرض والسماء والأصول والفروع.

ولكن لماذا يفارقنى النوم بالليل الطوال - ومتى ينتهى الواجب الزوجى الأسبوعى الثقيل...؟ يستحيل على أن أهدم المعبد على رأس الجميع لأنى ضبطت حارسه يتبول بجوار جداره... لا أستطيع أن أنساكم أو أنسى الناس، "جوهر" إبني ليس سوى الناس رغم أن ملكة أممة تزداد بُعدا يوما بعد يوم..... خائف خائف أنا، مع أنى متأكد أنى على حق.... أننا على حق مهما تعثر بعضنا.

ما زالت شهادتك بصدق محاولتى مطمئننى يا إبراهيم، أنا لم أفهمك أبدا وأنت تصر على ابتغاء "وجهه"، أنا خائف يا إبراهيم، مضت شهور ولم أركم فيها، كم أنا مشتاق لرنين صوتك يا أختى،

حين تتكلمون عن حب كل
الناس لكل الناس، تعيشون
فى الكذب ليل نهار وأنتم
تدورون حول أنفسكم فى
عيادة طبية مثل دورات هذا
الخطاب فى قاع الماء القذر.

ولغمازنا بسمه.

“جهر” يا إني هل تكون لي بديلا عن الناس؟
أو أنك سوف تكون طريقا إليهم؟

[1] - يحيى الرخاوى: رواية “مدرسة العراة” الجزء الثانى من ثلاثية “المشى على الصراط” الرواية الحائزة على جائزة الدولة التشجيعية سنة 1980 (الطبعة الأولى 1978، الطبعة الثانية 2008، الطبعة الثالثة 2018 تحت الطبع)، والكتاب متاح فى مكتبة الأنجلو المصرية وفى منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفى مركز الرخاوى: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضا بموقع المؤلف، وهذا هو الرابط www.rakhawy.net (طبعا هذه الصورة ليست للشخصية الحقيقية).

ما أشجع الكذب حين يسمى
بغير اسمه، حين يسمى
الأهيون الحديث منبهاً
للعوى

إرتباط كامل النص:

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD010718.pdf

*** **

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقبيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

شحن: إنجازات أربعة عشرة عاما من الكدم

(التأسيس العام 2000 الاطلاق على الويب العام 2003)

الكتاب السنوي الخامس

تحميل الكتاب

- التحميل من موقع " شبكة العلوم النفسية العربية"

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

اشترائنا خدمات الدوم في اصدارات الشبكة

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=36&controller=category&id_lang=3

خدمات الاعلان بالمتجر الإلكتروني

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=39&controller=category&id_lang=3



شبكة علوم النفس العربية

نحو لياقة نفسانية أفضل

مؤسسة العلوم النفسية العربية
معاً ... نذهب أبعد